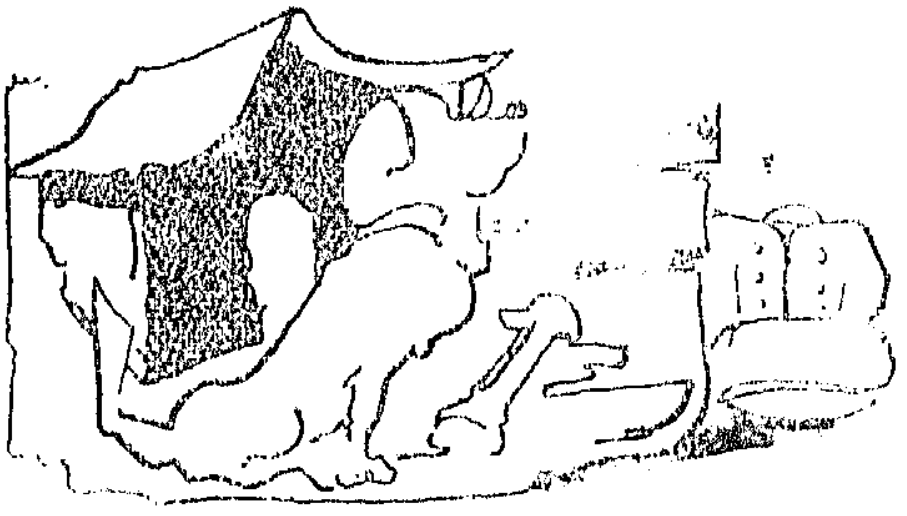

هذه القصة يقصها علينا طفل في السادسة من عمره ، فيحملنا بها الي دنياه . . دنيا قد نراها الآن تافهة ولكننا لا نستطيع أن ننكر أننا قد عشنا فيها أو فيما يشابهها زمناً رغداً . . زمناً ليت الليالى التي أمضته ترجعه . .

في سبيل كلمتي . .

obeikandl.com

كنا نجلس فى مخبئنا السرى — أنا وأخى الأكبر — وهو « عشة » من البوص على شاطىء النيل كانت تستعمل مصلى قبل أن يبنى المسجد الجديد — وقد نشر أخى أمامه صورة كلبين أحدهما رابض والآخر مضطجع ، وكان قد قطع الصورة من إحدى المجلات . ونظر إلىّ أخى متسائلا :

— مارأيك ؟

فأجبته وأنا أحملق فى الكلبين بنظرات معجبة :

— رائعان !

وسادت فترة صمت كان أخى ينصت خلالها بأذنيه كأنه يتسمع شيئاً ثم قال :

— يخيّل إلىّ أن هناك من ينادينا .

ثم طوى الصورة بعناية ونهض قائلا :

— لابد لنا أن نخفى الصورة وإلا رآها أبى . . أين تظننا نخفيها ؟

ولم يترك لى فرصة الإجابة بل أردف قائلا :

— سأخفيها فى حذائه .

ونظرت إليه فى دهشة وقلت له معترضاً :

— ولكن . . . .

ولكنه لم يدع لى فرصة الحديث إذ كان يستطيع التحدث أسرع منى ، وكانت كل محاولة فى مناقشته تذهب سدى ، لقد كان فى التاسعة وكنت فى السادسة ، واستمر يقول :

— ليس لدينا مكان آخر ، حذاؤه هو المكان الوحيد.

وتخيلت حذاء أبى . . ثم تخيلت أبى نفسه ، وأحسست برعب لمجرد التخيّل ، وهززت رأسى بشدة ولكنه قال :

— لاتكن أبله . فأنت تعلم أنه لايرتديه إلا فى المولد . أو عند مقابلة الحكام ، وكلاهما نادر .. سأعطيك الصورة لتتولى أنت إخفاءها فى الحذاء .

ولكنى هززت رأسى مرة أخرى . لقد كنت أكره أن ألقى بيدى إلى التهلكة ، وكنت أرى فى المسألة جرمين : أحدهما إدخال صورة كلاب فى الدار ، والثانى العبث بحذاء أبى . . فالعقاب مضمون . . لأن أبى لايرحم مذنباً ولا يغفر خطيئة . لقد كان رجلا ضخماً يطأطىء رأسه عندما ينفذ من أى باب ، وكانت أمى تقول عنه إنه طيب القلب ، ولكنى لم أك أصدقها لأنى مارأيته كذلك قط ، وكيف أراه طيباً وقد خصص لنا عصا

لتأديبنا إذا أخطأنا . . أو إذا خيّل له أننا أخطأنا .

وعندما عدت إلى الدار ، ذهبت إلى أبي وقلت له :

ـــ نريد كلباً . . أنا وأخي .

ورفع إليّ رأسه في دهشة وقال :

ـــ ماذا تريد أن تصنع به ؟

ولم أعرف بم أجيب ، ووقفت أمامه صامتاً ، وأخيراً تكلم هو قائلا :

ـــ لا فائدة في الكلاب . . إنها لا تؤكل ولا تشرب .

وعدت إلى أخي الذي وثب من فراشه وسألني متلهفاً :

ـــ ماذا قال لك ؟

ـــ لقد قال إنها لا تؤكل ولا تشرب .

وهنا دخلت أمي ، فقلت لهـــا إنني لا أحب أبي ، فوضعت أصبعها على فمها محذرة ، وقالت :

ـــ إن الأطفال يجب أن يحبوا آباءهم .

ـــ وهل كل الآباء في رداءة أبي ؟ !

ـــ إنه ليس رديئاً ، هو فقط لا يفهم عقلية الأطفال .

هيا إلى الفراش .

وغادرت الغرفة ، وسمعتها تتحدث إلى أبي بصوت لم أميز منه إلا بضع كلمات « إنهم أطفال ، ولابد لكي نفهمهم

أن تفكر بعقلهم » ، ولم أفهم معنى ماتقصد ، ولم أهتم بذلك كثيراً ، فقد كانت هناك أشياء كثيرة لاأستطيع فهمها .

واضطجعت على الفراش بجوار أخى ، وسمعته يقول كأنه يحدث نفسه :

ـ الكلاب لاتؤكل ولا تشرب ! ! والله لو أحضرنا كلباً ! لأكله وشرب دمه . . ! إنه رجل مخيف ! !

ومرت فترة طويلة دون أن أنام فقد كنت مستغرقاً فى التفكير ، وأخيراً سألت أخى :

ـ أتظنه يأكله كله ؟ بجلده ؟

وكان أخى قد أغفت عيناه ، فأجابنى وهو نصف نائم :

ـ يأكل ماذا ؟

ـ الكلب .

ـ لا . . لا أظنه حقيقة من آكلى الكلاب . نم . نم . دعك منه .

ومرت بضعة أيام بعد ذلك . . وفى ذات يوم عاد أخى من المدرسة فقذف بكتبه إلى المائدة ثم أشار إلىّ أن أتبعه ، ودلفنا سوياً إلى حجرتنا فهمس فى أذنى :

ـ أين أبى ؟

ـ لقد خرج .

— إلى أين ؟ ألا تعرف ؟

— إلى المقهى أو الجامع .

— إسمع . . لقد حصلت على شيء عجيب جداً . ماذا تظنه ؟ .

وهززت رأسى متسائلا ، فاقترب بغتة من أذنى ثم همس قائلا :

— لقد حصلت على طفل .

— طفل ! ؟ طفل حقيقى ؟

— أجل . . أجل . . لقد وضعته فى العشة على الشاطىء وسنتسلل الآن إلى هناك .

— ولكن كيف حصلت عليه ؟

— لقد عثرت عليه .

— وهل هو ملكنا الآن ؟

— ملكى أنا ، ولكنى سأعيرك إياه فى غيبتى عنه .

وعدونا إلى « العشة » ، وهناك وجدنا الطفل يبكى فرفعه أخى بين ذراعيه ، ونظرت إليه وقد تملكنى الإعجاب وقلت فى دهشة :

— إنه طفل حقيق ! !

ثم وجهت الحديث إلى الطفل أسأله :

ـ كيف حالك ؟

ولكنه لم يجبنى بكلمة ، فقلت فى نفسى ربما كان أبله ، أو أصم لايسمع ، ولكن أختى أخبرنى أنه لم يتعلم الكلام بعد ، وأنى كنت مثله فى يوم ما . . فلم أصدقه لأنى لاأذكر أننى كنت لاأستطيع الكلام يوماً .

وطلب منى أختى أن أجلس بجوار الطفل حتى يذهب إلى الدار فيسرق له قليلا من اللبن . كما طلب منى أن أغنى له إذا بكى ، فقلت له :

ـ هذا هين ، وسأغنى له حتى ولو لم يبك .

وذهب أختى ، وجلست إلى جوار الطفل وتبادلنا النظرات ، وسألته عن إسمه ولكنه لم يجب بكلمة ! ! وخطر لى أن أحمله بين ذراعى كما فعل أختى ، وحملته فعلا ، ولكننى سمعت وقع أقدام آتية من الخارج فوضعته جانباً وجلست بجواره ، وأحضر أختى اللبن فجرعه الطفل بنهم ، ثم طلب منى أن أعود إلى الدار حتى لاتقلق والدتنا .

وعدت إلى الدار فوجدتها جالسة ترتق بعض ثياب أبى فسألتها قائلا :

ـ عندما كنت طفلا . . أكنت حقاً لا أتكلم ؟

ونظرت إلىّ فى شىء من الدهشة وهزت رأسها بالإيجاب فعدت أسأل :

ـ تماماً كالقطط والكلاب ، وبقية الحيوانات ؟

فأجابت ضاحكة :

ـ أجل . . مثلها تماماً .

ـ ولكن الطفل خير من القطة ، ومن الكلب أيضاً .

وبعد فترة وجيزة أقبل أخى ، فتناولنا العشاء وذهبنا إلى الفراش ، وكان رأسى مشغولا بالطفل ، وبما أنوى أن أفعله معه ، وأى إسم سنطلقه عليه ، ولم يكد يستقر بنا المقام على الفراش حتى سألت أخى :

ـ بماذا نسميه ؟

فدفعنى أخى بيده قائلا :

ـ اخفض صوتك وإلا سمعونا .

فكررت السؤال فى صوت هامس ، ولكنه أعلى من الصوت الأول . فأجابنى بقوله :

ـ لم أفكر بعد . . هل تقترح شيئاً ؟

ـ « بوبى » .

ـ لاتكن غبياً . . إن هذا اسم كلب . . إنى أرى أن نسميه « عادل » .

ـ « عادل » إسم لا بأس به ، ولكنى أفضل إسم « بوبى » ! !

ـ قلت لك إن هذا إسم كلب . . فلا تكن عنيداً . . .
ثم لا تنس أن الطفل طفلي ، وأنى حر فى أن أسميه كما أشاء .
وسمعنا صوت أبي وأمى يذهبان إلى الفراش ، وأطفىء النور وساد السكون الدار ، فنهض أخى من الفراش وهمس فى أذنى :

ـ سأذهب إلى الطفل لألفه بإحدى «الفوط» وأنومه .

ـ أتعرف كيف تنوّمه ؟

ـ أجل . . إنى أذكر ما كانت تفعله أمى معك قبل النوم ، عندما كنت فى مثل سنه .

وكان أخى يذكر عنى كل شىء وأنا طفل . أما أنا فكنت لدهشتى لا أذكر عنه شيئاً ! . . لقد كان لاشك أكثر ذكاء ، وبعد هنيهة أبصرته يقفز من النافذة ، بعد أن أنبأنى أنه سيعود قبيل الفجر .

وفى اليوم التالى كان أبى وأمى يظنان أن أخى قد ذهب إلى المدرسة كعادته . . ولم يعلما شيئاً عن بقائه طيلة اليوم فى الكوخ بجوار الطفل وكان متعباً ، بعد أن قضى الليل طوله على الأرض ، وقد أزعجه الطفل بكثرة بكائه ، إلى أن اضطر إلى السكوت والنوم ، وقد نال منه التعب والأعياء .

وقضينا يوماً لطيفاً مع الطفل ، وقد تبين لى أن له ثلاث

أسنان ، وبدا لى أنه يستطيع الوقوف ولكنه لا يرغب فى ذلك بدافع من الكسل والخمول .

ومضت الليلة التالية كسابقتها ، وفى الصباح أنبأنى أخى أن رأيه قد استقر على أن يحضر « سوسو » لكى تتولى أمر الطفل . . فهى ولا شك أقدر منا على تولى أمره والعناية به . . فهى امرأة والنساء أدرى من الرجال بهذه الأمور . . وهى على أية حال لابد أن تتدرب من الآن على ذلك . . ولا شك أنها ستسر كثيراً بالطفل . . فهو طفل « جاهز » لم تتعب فى حمله ولا وضعه .

وكان أخى كثيراً ما يحدثنى عن سوسو . . وهى ابنة جيراننا فى حوالى الثامنة ، وكان يخبرنى أنه ينتظر حتى يتخرج من المدرسة فيشترى طائرة ليطيرا سوياً إلى بلاد بعيدة . . وأنبأنى أنها لم تمانع فى الفكرة ، بل رحبت بها ، . وقد سألته إن كان ينوى أن يأخذنى معه فوعدنى خيراً .

وبقيت مع الطفل حتى ذهب أخى وأحضرها ، ووقفت تنظر إلى الطفل فى دهشة ثم أقبلت تربت عليه وحملته فى رفق متسائلة :

ــ أهذا هو ابننا . . ؟ إنه جميل جداً . . إنه يشبهك كثيراً . . ما اسمه ؟

فقلت فى عجلة :

ـ بوبى ! ! .

فنظر إلىّ أخى شزراً ثم قال بلهجة تشبه كثيراً لهجة أبى :

ـ يا لك من حمار ! ! قلت لك إن هذا اسم كلب .

ثم التفت إليها قائلا :

ـ اسمه عادل .

وكانت سوسو فى تلك اللحظة تصلح للطفل ثيابه ، فنظرت إلينا نحن الإثنين شزراً وقالت بنفس لهجة أخى :

ـ يالكما من حمارين . . ! ! إنه بنت .

ثم أقبلنا على الطفل نتبينه فإذا به حقاً بنت .

ونظر إلىّ أخى قائلا بعد برهة :

ـ اذهب وأحضر اللبن .

فانطلقت أعدو إلى الدار ، وفى الطريق أبصرت جماعة من أهل البلدة بينهم « شيخ البلد » وقد ساروا كأنهم يبحثون عن شىء . . فلم آبه لهم وانطلقت فى طريقى ، وعندما وصلت إلى الدار وجدت أبى قد وقف بالباب وأمامه أحد مدرسى المدرسة وسمعته يقول له :

ـ أجل . . منذ يومين . . اليوم وأمس . . لم نر له وجهاً .

ونظر إلىّ أبى نظرة أوجست منها خيفة ، وسألنى :

ـ أين أخوك ؟ .

ـ على الشاطىء .

ـ قل له أن يحضر .

وانطلقت إلى أخى أسوق إليه النبأ ، ورأيت الاصفرار قد علا وجهه ، ثم التفت إلى سوسو قائلا :

ـ أبق مع الطفل حتى أعود .

وعندما التقينا بأبى أمسك بيد أخى وسحبه إلى مخزن الحبوب ، وبعد برهة عاد إلينا وحده وسألته أمى :

ـ أين الولد ؟

ـ لقد حبسته فى (الحاصل) . . إنه يأبى أن يقول أين كان فى خلال هذين اليومين ، وسيبقى هناك بلا طعام حتى يقول الحق .

وحاولت أمى أن تعترض ، ولكنه أسكتها بنظرة صارمة . .

وفى المساء تعشيت وذهبت وحدى إلى الفراش ، وقد شغلنى التفكير فى أخى وسوسو والطفل ، ولم أكد أحس أن أبى وأمى قد ذهبا إلى فراشهما حتى قمت إلى النافذة

وقفزت منها ، فسقطت على ركبتى وأحسست بالدماء تسيل من إحداهما .

وسرت أتلمس طريقى فى الظلمة الحالكة ، والخوف يتملكنى وخيل إلىّ أنى أبصر أشباحاً تتراقص أمامى ، ولكنى حاولت أن أهدىء نفسى ، ووصلت إلى (الحاصل) وصحت أنادى أخى فى صوت هامس مبحوح ، فأجابنى أخيراً ، وسألنى أن أذهب إلى الشاطىء لأرى ماذا فعلت سوسو بالطفل ، وحاولت أن أتقدم ، ولكنى رأيت شيئين يبرقان فى الظلمة لم أشك فى أنهما عينا عفريت مخيف وتسمرت قدماى فى الأرض وقلت لأخى إنى أبصر أمامى عفريتاً وسألته ماذا أفعل ، فأجابنى بأننى واهم ، ولكنى أكدت له أننى أبصره هناك واقفاً فى نهاية الطريق .

وصمت أخى برهة ، ثم طلب منى أن أعود إلى الدار وأخبر أمى .. ولكنى رأيت العفريت يقترب منى فصحت مستنجداً وأخذت أعدو أمامه وهو يتبعنى حتى وصلت إلى الشاطىء وهناك وجدت سوسو قد وضعت الطفل على ساقيها وأخذت تربت عليه وتغنى له . . ثم سألتنى عن أخى

فقلت لها إن أبي قد حبسه . . ولكني لم أكد أتم قولي حتى أبصرت أخي قد أقبل علينا يلهث فقد استطاع أن يقفز من نافذة (الحاصل) .

وفي نفس اللحظة سمعنا في الخارج وقع أقدام كثيرة وأصواتاً تتحدث ، ثم أبصرنا حشداً من الناس يقتحم « العشة » . . . واستطعت أن أميز على ضوء المصباح الذي حمله أحدهم أنهم أولئك الجمع الذين كانوا يبحثون عن شيء ، وكان معهم بعض رجال الشرطة .

وأمسك أحدهم بالطفل يحتضنه وساقونا أمامهم إلى العمدة ، وهناك وجدتهم قد تكأكأوا على أخي وخيل إليّ أنهم يتآمرون على إرساله إلى السجن ، وتسللت من بين الجمع وهممت بأن أعدو إلى الدار لأخبر أبي . . ولكني تذكرت العفريت . . فعدت إلى سوسو وهمست في أذنها بأن تذهب فتخبر أبي .

ورأيت الشرطي قد أمسك أخي فهجمت عليه وضربته بقبضة يدي ، وصحت في الجميع إن هذا الطفل هو طفلنا ، ولكنهم لم يحسوا بي واستمروا في نقاشهم وهرجهم .

وفجأة لمحت أبي بجسمه الطويل قد أقبل في الظلمة ،

وبجواره سوسو تعدو إلى جانبه ، وسرى بين الجميع الهمس ووقف الشرطى مكانه وبدا لى جلياً أن الجميع كانوا يخشون أبى تماماً كما نخشاه . . لقد كان رجلا مخيفاً .

وأقبلوا عليه يحيونه باحترام ثم سلموه أخى ، ورأيتنا نعود أدراجنا دون أن نأخذ الطفل فقلت لأبى :

ـــ إننا لم نأخذ طفلنا . . إن أخى هو الذى وجده ، وهو إبنه ، هو وسوسو .

ولكنه جذبنى من يدى ودفعنى أمامه . . .

ولم نسر عدة خطوات . . حتى لمحت أمراً جللا ، واكتشفت شيئاً خطيراً .

لقد كان أبى يرتدى الحذاء ! !

وقرصت أخى . . . وأشرت إلى الحذاء . . فعلت وجهه علامات الذعر وبدا عليه كأنه ينوء تحت حمل ثقيل من المصائب ، وأنه قد أضحى فى حالة يأس .

ودخلنا إلى الدار وأقبلت أمى تحتضن أخى . . ولم ينبس أبى ببنت شفة ، ولكنى لم أشك فى أنه قد أعد لأخى عقاباً خطيراً . . فقد كانت الجرائم متعددة : غياب عن المدرسة ، وسرقة الطفلة ، وأخيراً صورة الكلاب التى لاشك فى أنه اكتشف وجودها فى الحذاء .

ودلفنا إلى حجرتنا فى سكون ، وربت على ذراع أخى وقلت له أهدىء من روعه :

ـ لاتخش شيئاً .

ـ إنى لاأخشى شيئاً . . لأنه لن يستطيع أن ينالنى بسوء . . . سأهرب من الدار ولن أعود أبداً . . فلست من الحمق حتى أنتظر لكى أموت من الضرب .

ـ إذن سأسافر معك .

ـ حسناً سوف ندبر أمرنا معاً .

ـ وسأطلب إلى أمى أن تفر معنا أيضاً .

ـ لا تكن أحمق . . . إياك أن تذكر لها شيئاً عن ذلك .

ـ ولكننا لانستطيع تركها وحدها .

ـ إذن ابق أنت .

وفى تلك اللحظة سمعت صوتاً عجيباً لم أعتد سماعه من قبل . . سمعت أبى يضحك ! !

وأرهفنا السمع مشدوهين ، ولكنه كان يضحك فعلا . . وسمعناه يقول لأمى :

ـ ألم ترى إبنة ابنك ؟ لقد أصبحت جدة . . أتذكرين عندما كنت طفلة . . وكنت تحملين الوسادة على كتفك

وتدعين أنك قد أنجبت طفلة . . وتطلبين منى أن أحضر لها اللبن ؟ لقد كان ابنك خيراً منا فقد سرق طفلة حقيقية وأعطاها لسوسو . . لقد أنجبا طفلة « جاهزة » . أتذكرين ذلك الزمن ؟

وسمعت أمى تجيب ضاحكة :

ــ ليت الليالى التى أمضته ترجعه .

ثم سمعنا صوت قبلة . . وأردف أبى يقول .

ــ لقد وجدت فى الحذاء هذه الصورة .

وهنا أحسست برجفة . . وخيّل إلى أنى أستطيع أن أسمع دقات قلبى ، وسمعت أبى يقول :

ــ أخبريهما بأنى سأحضر لكل منهما كلباً ، على ألا يعبثا بالحذاء بعد ذلك .

وقفزت إلى أختى أحتضنه . . . وأخذنا نرقص فى الحجرة . . .